Adab Al-Rafidain

https://radab.mosuljournals.com

Languages of Eyes and its Connotations in Al- Asha's Poetry

Janan Abdullah Younis

Asst. Prof. / Dept. of Arabic Language/college of Art/
University of Mosul

Article Information

Article History:
Received October 9, 2023
Reviewer October 25 .2023
Accepted November 4, 2023
Available Online June1 , 2024

Keywords:
Woman,
Love,
Wife.

Correspondence:
Janan Abdullah Younis
janan.a.y@uomosul.edu.iq

Abstract

Since ancient times, man has known other means of communicating with his surroundings other than the spoken audio language, including visual signs and suggestions, especially the eyes, as they are the window to the heart, and they are responsible for communicating many messages, which are the most prominent forms of visual signs indicating meanings, without excessive talking or Searching for words, as is the case with the linguistic sound, and it may be that this proportionality between them and the sound is what paved the way for their entitlement to the term (language), Al-Asha is considered one of the most prominent poets of the pre-Islamic era, as this phenomenon emerged with him, by mentioning the woman's eye (daughter, wife, and lover), the enemy's eye, or the she-camel's eye...etc**.**

The research was based on an entrance and two sections, the entrance included defining (the concept of the language of the eyes), and the first section was devoted to the study of human eyes and their implications in terms of (woman / love), (enemy / hate), relatives / hatred), while the second section included the study of animal eyes and their implications In terms of (the camel, the wild cow).

DOI: 10.33899/radab.2023.143820.2007, ©Authors, 2023, College of Arts, University of Mosul.
This is an open access article under the CC BY 4.0 license (http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/).

لغة العيون ودلالاتها في شعر الأعشى

جنان عبدالله يونس*

المستخلص :

عرف الإنسان منذ القدم وسائل أخرى من التواصل مع محيطه غير اللغة الصوتية المنطوقة، منها الإشارات المرئية والإيحاءات ولاسيما العين، فهي نافذة القلب، وهي المسؤولة عن توصيل العديد من الرسائل، التي تعد أبرز أشكال الإشارات المرئية الدالة على المعاني، من دون الإفراط في الحديث أو البحث عن الكلمات، شأنها في ذلك شأن الصوت اللغوي، ويمكن أن يكون هذا التناسب بينها وبين الصوت هو الذي مهد السبيل لاستحقاقها مصطلح (لغة)، ويعد الأعشى من أبرز شعراء العصر الجاهلي؛ إذ برزت عنده هذه الظاهرة، عبر ذكر عين المرأة (الابنة، الزوجة، والحبيبة)، أو عين العدو، أو عين الناقة ... الخ.

* أستاذ مساعد/ قسم اللغة العربية / كلية الاداب / جامعة الموصل

قام البحث على مدخل ومبحثين، تضمن المدخل تحديد (مفهوم لغة العيون)، وخص المبحث الأول لدراسة عيون الإنسان ودلالاتها من حيث (المرأة/ الحب)، (العدو/ الكره)، (الأقارب/ البغض)، في حين تضمن المبحث الثاني دراسة عيون الحيوان ودلالاتها من حيث (الناقة، البقرة الوحشية).

الكلمات المفتاحيَّة: المرأة، الحب، الزوجة.

مدخل: تحديد مفهوم لغة العيون:

اللغة كالكائن الحي تنمو وتتطور، وتتغير، وترتقي في دلالات ألفاظها، وهي تخضع "للناموس التطور والتغير؛ وذلك لأنَّ العلائق المتواشجة بين اللغة والحياة الإنسانية قد جعلت من هذا التطور أمراً لا مناص منه"[1]، وأحياناً تهبط وتنحرف في دلالات ألفاظها، بحسب الظروف المحيطة بها، وطبيعة المجتمع الذي تعيش فيه تماماً كالإنسان الذي لا يبقى على حالٍ أبداً، فإذا وجدت عناية من أهلها ارتقت وتألقت "فالألفاظ لم تخلق لتحبس في خزائن من الزجاج أو البلور، فيراها الناس من وراء تلك الخزائن، ثم يكتفون بتلك الرؤية العابرة !! ولو أنها كانت كذلك لبقيت على حالها جيلاً بعد جيل دون تغير أو تحول، لكنها وجدت ليتداولها الناس".[2]

وبحسب التعريفات الكثيرة والمتعددة للغة التي تكاد تختلف صياغتها لكنها تتفق في الجانب الصوتي فهي "نظام من الرموز الصوتية، وتكمن قيمة أي رمز في الاتفاق عليه بين الأطراف التي تتعامل معه، وقيمة الرموز اللغوية تقوم على علاقة بين متحدث أو كاتب هو المؤثر، وبين مخاطب أو قارئ هو المتلقي".[3]

ولسنا بصدد متابعة هذه المسألة من الناحية التاريخية، وإنما ما يهمنا هو إعطاء لمحة سريعة لمفهوم اللغة المنطوقة، إذ عبر الجاحظ عن تلك الغاية بمصطلحات متقاربة في دلالاتها، إذ قال إنَّ التفاهم بين الناس لا يحصل عن طريق اللغة المنطوقة فحسب، إنما هناك وسائل اتصال أخرى لا تقل عنه أهمية، وقد ذكر خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد: أولها اللفظ ثم، الإشارة، ثم العقد، ثم الخط، ثم الحال التي تسمى نصبة[4] ثم استرسل الحديث عن الإشارة، فأولاها ما تستحقه من بحث متميز لم يغفل فيه عن ذكر إشارة، حين قال: "قد قلنا في الدلالة باللفظ، وأما الإشارة باليد، وبالرأس، وبالعين والحاجب والمنكب، إذ تباعد الشخصان، وبالثوب وبالسيف و... والإشارة واللفظ شريكان، ونِعمَ العون هي له، ونِعْمَ الترجمان هي عنه"[5]، يمكن القول إنَّ الإنسان منذ القدم قد عرف وسائل أخرى للتواصل مع بني جنسه غير اللغة الصوتية المنطوقة، منها الإشارات المرئية، ولاسيما الإشارة بالعين التي تعد من "أبرز أشكال الإشارات المرئية الدالة على المعاني، وربما كانت لها أهمية خاصة من بينها بسبب صلة طرفيها المباشرة بالإنسان، فالإنسان هو موجدها بعضو من جسده، وهو متلقيها بعضو آخر منه، شأنها في ذلك شأن الصوت اللغوي، ولعل هذا التناسب بينها وبين الصوت هو الذي مهد السبيل لاستحقاقها الوصف بمصطلح (لغة).[6]

ولأنَّ العين من الحواس المهمة والضرورية في عملية التواصل مع الآخرين فهي كما ذكرت في الأصل اللغوي لابن فارس: "العين والياء والنون أصل واحد صحيح يدل على عضو واحد به يبصر وينظر، ثم يشتق منه"[7]، ولقد تعددت معاني العين اللغوية، وتنوعت دلالاتها لتقارب العشرة، فالعين كما ذكرت المعاجم العربية تأتي بمعنى العين الناظرة لكل ذي بصر، ونبع الماء، وذات الشيء، وشريف القوم وسيدهم، والجاسوس من القوم، والسحاب، والبقر، وخيار الشيء وذاته، والمال العتيد الحاضر، والرّكبة".[8]

---

[11]() في علم الدلالة –دراسة تطبيقية في شرح الأنباري للمفضليات، عبد الكريم الجمل: 33.

[2]() دلالة الألفاظ، إبراهيم أنيس، ط7، مصر، مكتبة الأنجلو المصرية، 1993: 106.

[3]() علم اللغة العربية، د. محمود فهمي حجازي، (د. ط)، القاهرة، دار غريب، 1992: 10.

[4]() البيان والتبيين، عمرو بن بحر الجاحظ (ت: 255هـ)، القاهرة، ط5، مكتبة الخانجي، تحقيق: عبد السلام هارون، 1985: 76.

[5]() البيان والتبيين: 1/77-78.

[6]() لغة العيون، قراءة خطاب العين في الشعر العربي القديم (دراسة أسلوبية)، ضياء غني لفتة، علي محسن باوي، ط1، عمان، دار الحامد، 2008: 20.

[7]() معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، تحقيق: شهاب الدين أبو عمرو، ط1، بيروت، دار الفكر، 1994، مادة (عين): 725

[8]() م. ن: مادة (عين): 725-728.

في حين يقول ابن منظور في لسان العرب إنَّ العين "حاسة البصر والرؤية، أنثى تكون للإنسان وغيره من الحيوان، وقال ابن السكيت: العين التي يبصر بها الناظر وأعينات والجمع الكثير عيون".[1]

ولا تكاد تختلف الدلالة في المحيط إذ إنَّ العين "تعني الباصرة وهي مؤنثة وجمعها أعيان، كما يمكن كسر جميعها فتصير أعينات".[2]

والعين لفظة عربية عريقة لها دلالات ومعانٍ متنوعة ومتعددة، لذا تحدث العرب كثيراً عن العيون في شعرهم ونثرهم، ومن الطبيعي أن نجد حديث العيون في الشعر الجاهلي ولاسيما في شعر الأعشى، إذ إنَّ للشعر علاقة عميقة بالعين، فهي "تكشف عما تكنه الصدور من لوعة الحب ومرارة الفراق، وتجول فيها الخواطر وأماني اللقاء، كما تعبر العين –أحياناً عن خفقات القلب وما يعتريه من وهج العاطفة فهي التي ترى الجمال، وهي التي تحدد ملامحه".[3]

وعن طريق العين يمكن الاستدلال بمعرفة الشيء وهيئته وطبيعته الحسية، ولونه، وبإمعان النظر للشيء نستطيع فهم مغزاه وكنهه، وقد قال الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۝٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٞ ۝٤ ﴾ [4]. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴾.[5]

نظم الشاعر (الأعشى)[*6] قصيدة تمتاز عن بقية القصائد التي نظمها بأسلوب مميز في الإشارة إلى دلالة العين، أظهر عبرها مواطن الحسن والجمال في مدح سيد المرسلين محمد (ﷺ) حين قال: أحق أنك قضيت ليلة كليلة الأرصد لا يغمض لك جفن، وعادك ما يعود اللديغ المسهد ؟ فلم يكن سهرك من عشق النساء، فقد فارقتهن في زمن صداقة (مهدَد) ولكن كان سهرك لطوارق الدهر الخوارق ونائباته، لله هذا الدهر في تقلبه، فما أعجب بين الشباب والشيب، والثروة والفقر، أنفقت عمري دائباً في جمع المال منذ الصبا، صبياً أمرد، وكهلاً قد علاني الشيب ابتذل العيس، ترفل بي مسرعة بين (النجير) في حضرموت و(صرخد) في العراق. فلا تسألني عني فما أكثر من يسأل عن الأعشى مظهراً العناية بأمره حين يمضي في البلاد ألا يعلم الذي يسألني أين تقصد ناقتي إنها على موعد مع أهل (يثرب) تسير ليلها كله، لها رقيبان في نجمي (الجدي) و(الفرقد.[7])

وما يعرف عن الأعشى أنَّ مقدمات قصائده تبدأ كلها بذكر الخمر أو الغزل، ويتخللها وصف للناقة والسَّرى في الصحراء وعلى ظهور العيس، في حين تمتاز هذه القصيدة على غير عادته في قصائده الأخرى وكأنما يودع عهد الهوى والخمر، وينظر نظرة الحكيم المتبصر، ويشكو حالة المسهّد، اذ لم تغمض عيناه، بسبب ما أصابها من الرَّمد الناتج عن طول السهر والسهد، لا بسبب الصبابة والهوى، ولكن بسبب ما خرج به من معرفته بالدهر الذي إذا أصلح شيئاً عاد فأفسده.

---

[1]() لسان العرب، ابن منظور، محمد بن مكرم (ت: 711هـ)، بيروت، دار صادر: 357/10. مادة (عين)

[2]() القاموس المحيط، الفيروزآبادي، فصل (الظاء): 1227.

[3]() تراسل الحواس في الشعر العربي القديم، عبد الرحمن محمد الوصيفي، ط1، دمشق، إحياء التراث العربي، 2008: 51.

[4]() سورة الملك: الآية: 3-4.

[5]() سورة الأنعام: الآية: 103.

*)[6] يعد الأعشى من شعراء الجاهلية المبرزين وقد عرف أنه كان يتكسب بالشعر يمدح به سادات العرب، كما تقول الروايات أنه: جاب الجزيرة العربية العربية ونزل على ساداتها من أشراف العرب مادحاً لهم، نائلاً من عطائهم. ولما ظهرت دعوة الإسلام –وهاجر سول الله- (r) إلى المدينة، يذكر الرواة أنَّ الأعشى خرج قاصداً رسول الله (r) ليمدحه على ما جرى من عاداته مع أشراف العرب، وكان على ما يبدو –قد أعد قصيدة في مدح الرسول الكريم (r)- فلقيه أبو سفيان بن حرب، وثناه عن الوصول إلى الرسول (r) وقال لأهل مكة: اتقوا لسان الأعشى، فإنه ذاهب يمدح محمداً، فجمعت له قري مائة من الإبل عطاء له؛ على أن يرجع عن الوصول إلى المدينة، كما أخبروه أنَّ محمداً يحرم الخمر، فقال: أتروى منها سنة ثم أعود، ورجع الأعشى، فمات في نفس العام ورويت هذه القصيدة:www. alukah.net.

[7]() ديوانه: 134.

إنَّ صاحبته (مهدد) قد تناسى خُلتها التي كانت بينه وبينها، فهو وإن كان مسهداً، إلاّ أنَّ ذلك ليس بسبب العشق، كما كان حاله من قبل؛ وإنما بسبب ما يراه من تقلب الدهر به، ومن أمور يريد اصلاحها .[1]"

فالمصائب كلها تقترن بالدهر؛ لأنه غامض خفي "فهذه أمور حق للجاهلي أن يقلق وهو يتصورها، لكن القلق الأكبر والأعمق ناجم عن الطاقة الكبرى، عن حكم الدهر بالفناء على الوجود الإنساني"[2] ولأنه لا يعرف أي شيء "عما هو مقدر له، وما سوف يصيبه في أية لحظة، وما تخبئه له الأقدار التي تتحكم بوجوده خفية من وراء حجاب الغيب".[3]

وحين يجتاح الشيب الإنسان ويمتد به العمر يمضي باتجاه الشيخوخة فيبدأ نقطة تحول في عمر الإنسان تجتاحه أو تغير مسار حياته من حياة زاهية مشرقة الى حياة الضعف والهرم والشيخوخة إيذاناً بالفناء. كل ذلك يأخذه إلى السهد، حينما يتقلب الدهر، فيثير فيه دافعاً للتشبث بالحياة.

ولعلنا نلمح الحكمة في أبياته حينما نقارن بين قصائده الأخرى التي يتقاسمها المديح والخمر والغزل، ووصف للناقة والسفر في مجاهيل الصحراء ثم إنه كأنما يندم على ما كان عليه حاله طول الدهر من سفر في طلب المال بالمديح، والسير بين المناطق، يطلب من السادة والأشراف المال والثروة والصحبة.

نقل لنا الشاعر بهذه القصيدة دلالة العين التي تفضي إلى معاناة وسهر ومكابدة تعبر عن حالة الوجد التي يعانيها الشاعر، تلك الحالة التي جعلت قلبه جريحاً وعينه تدمع لا يغمض لها جفن وهو يمدح الرسول الكريم محمد (ﷺ) في مطلع قصيدته، إذ يقول:[4]

ألمْ تغتمض عيناك ليلة أرمدا	وعَادَكَ ما عادَ السليم المسهداج
وما ذاكَ من عشق النساءِ وإنما	تناسيتَ قبل اليومِ حُلة مهددا
ولكن أرى الدَّهرَ الذي هو خاسرٌ	إذا أصلحت كفاي عادَ فأفسدا
شبابٌ وشيبٌ وافتقارٌ وثروةٌ	فللّه هذا الدهرُ كيفَ تردَدَا
وما زلتُ أبغى المالَ مذ أنا يافعٌ	وليداً وكهلاً حينَ شبتُ وأمردا
وابتذلُ العيسَ المراقيل تغتلى	مسافة ما بينَ النجير فصرخدا
فإن تسألي عني فيا رُبَ مسائلٍ	حفي عن الأعشى به حيثُ أصعدا
ألا يا هذا السائل أني يممتُ	فإنَّ لها في أهلِ يثربَ موعدا
فأما إذا ما أدلجت فترى لها	رقيبين جدياً لا يغيبُ وفرقدا

وقال أيضاً:[5]

بنيَّ يرى ما لا ترون وذكرهُ	أغار لعمري في البلاد وأنجدا

---

[1]() www. alukah.net.

[2]() ظاهرة القلق في الشعر الجاهلي، د. أحمد خليل، ط1، دمشق، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر: 75.

[3]() الشاعر والوجود في عصر ما قبل الإسلام، باسم إدريس قاسم، رسالة ماجستير، بإشراف: د. محمد فتاح عبيد، كلية الآداب/ جامعة الموصل، 1992م: 93.

.93

[4]() ديوانه: 135.

[5]() ديوانه: 135.

له صدقاتٌ ما تغِبُّ ونائلٍ	وليس عطاءُ اليومِ مانِعه غدا
أجدك لم تسمع وصاة محمدٍ	نبي الإلهِ حين أوصى وأشهدا
إذا أنت لم ترحل بزادٍ من التقى	ولاقيت بعد الموت من قد تزودا
ندمتَ على أن لا تكونَ كمثله	وأنك لم تُرصِد لما كان أرصدا
فإياكَ والميتات لا تأكلنها	ولا تأخذن سهماً حديداً لتفصدا
وذا النصب المنصوب لا تسكنه	ولا تعبدُ الأوثانَ واللهُ فاعبدا
وصلِ على حين العشيات والضحى	ولا يحمد الشيطان واللهُ فاحمدا
ولا تسأل المحروم ولا تتركنه	لعاقبةٍ ولا الأسيرَ المقتدا
ولا تحزن من بائسٍ ذي ضرارةٍ	ولا يحسبن المرءُ يوماً مخلدا
ولا تقربنَ جارةً إن سرها	عليك حرامٌ فانكحن أو تأبدا

المبحث الأول

عيون الإنسان ودلالاتها

- المرأة (الحب):

تنوعت أساليب الشعراء في اختيار الصيغ المعبرة عن دلالة العين في إيصال المغزى العام أو الدلالة غير المحددة كلاً ضمن فهمه الخاص أو قناعته الذاتية "ولا يقتصر الأمر على المحسوسات وحدها في إدراك العين لها، وإكسابها دلالات لغوية خاصة، بل يدخل في ذلك غير المحسوس، بما يكون الإنسان قد شكله في ذهنه من صور تدل على اللفظ كالشجاعة، والألم، وغيرها، فالإنسان يقوم بتخيل اللفظة وتجسيدها، كما يراه من خلال شكل وهيئة وكتلة ولون وربما حركة ... وما رسم هذه الصورة باختلاف أشكالها وهيئاتها، وطبيعة تجارب الإنسان حولها إلاّ دليلٌ على أن للبصر دوراً في ذلك، نظراً للتجسيد الذي يحتاج إلى حواس أهمها في هذا المجال البصر، فالعيون هي وسائل المعرفة".[1]

ويمكن أن تتحول أنظار العين إلى "لغة تحمل من الدلالة المتمايزة الكثير مما يبين مشاعر حاملها وحالته النفسية، والعين تبرز معنى الكثرة وهو الخطاب الذي اعتاد الأفراد استخدامه حتى في التعبير عن عيني الإنسان، حيث تلفظ (عيون) وهي المنبع لكل شيء؛ وبذلك تفيد الشمول والسيطرة على جميع الأطراف، وتتحول لها الوظيفة الأساسية التي تخول صلاحيات الأعضاء الأخرى المحيطة بها، ومن ثم تبرز اللغة التي تمتلكها العيون في قراءة كل الأيقونات المحيطة وتأويل دلالاتها"[2]. وعلى هذا الأساس يمكن أن يعد الأعشى من أبرز شعراء الجاهلية المكثرين من وصف العيون .

ويعد حضور المرأة في حياة الشاعر الملاذ الآمن لحياته بوصفها "المحور الأساس في علاقته بالمرأة التي تشكل الذات الأخرى أو الآخر في مقابل، الأنا التي يكشف من خلالها عن ذاته الشاعرة الباحثة عن قهر انفصاليتها الإنسانية باتجاهها نحو الآخر وترك سجن عزلتها وتجاوز فرديتها إنه نزوح نحو الآخر ورغبة للاندماج معه[3]"، فهي تتأرجح في مخيلته بوصفها تلك المرأة التي يتغزل من خلالها بتلك المرأة

[1] () العين وتطورها الدلالي في الشعر العربي حتى نهاية العصر الأموي- دراسة دلالية إحصائية، رسالة ماجستير، مها أحمد محمد أبو حامد، بإشراف: أ. د. يحيى عبد الرؤوف جبر، جامعة النجاح الوطنية، نابلس- فلسطين، 2010م: 13.

[2] () جماليات لغة العيون ودلالاتها اللغوية، د. مدقن كلثوم، مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، الجزائر، ع 13، مج4، 2021م: 21.

[3] () الرؤية في شعر ذي الرمة، د. آن تحسين محمود الجلبي، دار ومكتبة بسام، الموصل- العراق، 1424هـ/ 2003م: 111.

وهي من أحب النساء إليه وأشهرهن في شعره يسميها تارة (قتلة) ويدللها تارة فيسميها (قتيلة) أو (قتل) ويقال إنها زوجته، فكأنه يراها بين أترابها، أيام كان الحي آهلاً لهم، ملءُ جوانبه البهجة في النهار، والسمار في الليل، إذ شبهها بدمية أقيمت في محراب مرصع بالمرمر والمزخرف بالذهب اللامع البراق أو كأنها بيضة مكنونة في الرمال أو درة مصقولة عند التجار، تملك على الناظر إليها أمره ولبه فيما ينفك متعلقاتها، ليست بسوداء ولا بذيئة وقد اكتمل حسنها في فخامة جسمها وامتداده الذي يضفي عليها ثوباً من الكبرياء تشوبه بالخلق الظاهر العفيف، دلالة على الرقة والجمال[1]. إذ قال:[2]

شاقتك مِن قتلة أطلالُها　　بالشَّطِ فالوَتر إلى حاجِر

وقال أيضاً:[3]

وقد أراها وسط أترابها　　في الحيّ ذي البهجةِ والسامرِ

كدُميةٍ صُوّرَ محرابها　　بمُذهبٍ في مرمرٍ مائِر

او بيضةٍ في الدِّعصِ مكنونةٍ　　أو درةٍ شيفتْ لدى تاجِرِ

يشفي غليل النفس لاهٍ بها　　حوراءُ تصبى نظر الناظِرِ

ليست بسوداء ولا عنفص　　تسارقُ الطرفَ إلى الذاعرِ

عبهرةُ الخلقِ بلاخيةٌ　　تشوبه بالخلق الطّاهر

عهدي بها في الحيّ قد سُربلت　　هيفاءُ مثل المهرةِ الضامرِ

قد نهد الثدي على صدرها　　في مشرقٍ ذي صبحٍ نائِرِ

لو أسندتْ ميتاً إلى نحرها　　عاشَ ولمْ يُنقلْ إلى قابِرِ

ثم يعود ليشبهها بالغانيات، إذ إنَّ سرق الطرف للمرأة يعد خروجاً عرفياً عن عادات وتقاليد الجاهلية، وصفاً لتلك المرأة بالغانية، لكنه مستباح للغانيات اللواتي يكون طلابهن جهلاً لو صار القصد منه اللهو والغزل فقط، (وما أرى طلاب الغانيات إلاّ جهلاً) وحمقاً وقد كان اللهو والغزل جُلَّ همه في بعض أيامه الخالية وهو يصور حال تلك النساء في خبثهن الختال، إذ يسرقن النظر إلى الرجال من هوادجهن، من خلف الستور المطرزة الموشاة، ولعلها دلالة اللهو والعبث، إذ يقول:[4]

جَهلٌ طِلابُ الغانيات وقد　　يكونُ لهوٌ هَمهُ وغَزَل

السارقاتُ الطرفِ من ظعنِ الـ　　حيّ ورقمٌ دونها وكِلْ

ولعل توظيف الموروث فيما يطلبه الشاعر من ابنته وهو أن تتمتع ببصيرة تمكنها من التفاؤل بعودته، والموروث الذي يوظفه هو حكاية زرقاء اليمامة التي تبصر عن بعد لمسافة ثلاثة أيام وهنا يريد منها، أي ابنته، أن تستشرف القادم المتعلق بالمصير بصورة متفائلة دلالة بعد النظر في البصر والبصيرة، إذ يقول:[5]

---

[1]() ينظر: ديوانه: 140.

[2]() ديوانه: 139.

[3]() ديوانه: 139.

[4]() ديوانه: 275.

[5]() ديوانه: 103.

كوني كمثلِ التيٍ إذ غابَ وافدُها | أهدتْ له من بعيدٍ نظرةً جزعا
ولا تكوني كمن لا يرتجى أوبة | لذِي اغترابٍ ولا يرجو له رجَعاً
ما نظرت ذات أشفارٍ كنظرتها | حقاً كما صدق الذئبي إذ سَجَعا
إذ نظرت نظرةً ليست بكاذبةٍ | إذ يرفع الآل رأس الكلب فارتفعا
وقلبت مقلةً ليست بمُقرفةٍ | إنسان عين ومُؤقاً لم يكن قمعاً
قالت أرى رجلاً في كف كتف | أو تُخصفُ النَّعلَ لهفي آيةً صنعا

ويمكن أن تكون زاوية الرؤية عند ابنته دلالة الخوف والحرص على والدها الشاعر من مخاطر السفر التي ستبقى في هاجسها إلى أن يعود من غربته وهي دلالة الاستشعار لدى الشاعر لما في دخيلة ابنته حيال تغربه بحثاً عن مورد العيش والحياة. إذ يقول:[1]

تقول بنتي وقد قربتُ مُرتحلاً | يا ربُ جنب أبي الأوصاب والوَجَعا
واستشفعتْ من سراة الحيّ ذا شرفٍ | فقد عصاها أبوها والذي شفعا
مهلاً بُنيَّ فإنَّ المرءَ يبعثهُ | همُّ إذا خالَطَ الحيزُومَ والضَلَعا
عليكِ مثلُ الذي صليتِ فاغتمضي | يوماً فإنَّ لجنب المرءِ مضطجعا
واستخبري قافل الركبانِ وانظري | أدبَ المسافرِ إن ريثاً وإن سَرَعا

لم يكتف الشاعر بوصف المرأة بل يفسح المجال للغزل في أبياته وذكر حاله وكيف يبيت الليل ساهرة لكثرة همومه ، يرعى النجوم وقد أضناه الغرام. ينظر ساكناً وقد أثقلت عليه الهموم وعاداه الداء، بل قد ذهبت حبيبته بقلبه، فأمسى عندها رهينة ليس لاستردادها من سبيل، ليتها قد أحبته مثلما أحبها، وجمع الود بين قلبيهما... لكن لا شيء يشفي غليل النفس سوى النظر إليها أو رؤيتها، فاللقاء وحده من يشفيه، ولعل تلك المرأة التي صادت قلبه بعينين فاترتين، كأنهما عينا غزالة قد انفردت عن القطيع، تنظر في حنان إلى صغيرها الغضيض الطرف وقد لصق بالأرض وثغر باردٍ منسق عذب المذاق، كأنما سُقى الكافور كأساً بعد كأس وحيدٍ مستوٍ طويل كأنه جيد غزالة حين تمده في هدوء واطمئنان بين أشجار الأرائك[2]، إذ يقول:[3]

نامَ الخليُّ وبث الليلُ مرتفعاً | أرعى النجومَ عميداً مثبتاً أرقا
أسهو لهمي ودائي فهي تسهر بي | بانتْ بقلبي وأمسى عندها غلَقَا
يا ليتها وجدت بي ما وجدت بها | وكانَ حبٌّ ووجدٌ دام فاتفقا
لا شيء ينفعني من دون رؤيتها | هل ينثني وامقٌ مالم يصب رهَقا
صادت فؤادي بعيني مغزلٍ خذلتْ | كأنَّما غُلَّ بالكافورِ واعتبقا

ثم يسترسل الشاعر في تصوير المرأة ومغامراته الجريئة فهي بيضاء، قد امتلأ جسمها باللحم، حتى دقت عظامها واختفت فما تبين رآها الأعشى في (الشيطين) فأحبها وتعلق بها، فإنها امرأة فاتنة ناعسة الطرف شغفت قلبه، فقد تصطاد الرجال بخبرتها، وتمسك السواك بأناملها وتجريه على أسنانها المستوية، بينما هو متعلق بها، متهالك عليها يود لو أدركها، لكنه لا ينالها ولا يدرك منها مغنماً، وقد يكون تبادل

---

[1] () ديوانه: 101.

[2] () ديوانه: 364، 366.

[3] () ديوانه:.365

النظرات بين الطرفين هو ما دعا الأعشى إلى تصوير صفات تلك المرأة بفعل سهام عينها الساحرة التي صادت فؤاده وما لتلك النظرات من دلالة الحب والعشق والوله ولعلها لغة العيون التي تحاول النساء اصطياد الرجال بتلك الحاسة المهمة، إذ يقول:[1]

بيضاءُ جمَّاءُ العظام لها ... فرعٌ أثيثٌ كالجبالِ رَجِلْ

عُلقتها بالشيطين فقد ... شقَّ علينا حبها وشغلْ

إذ هي تصطاد الرجال ولا ... يصطادها إذا رماها الأبلْ

يجري السواكُ بالبنانِ على ... المس كأطرافِ السّيال رتلْ

تردُّ معطوفَ الضجيجِ على ... غيلٍ كأنَّ الوشمَ فيه خِللْ

كأنَّ طعم الزنجبيلِ وتفٌ ... ناحاً على ارْى الدبور نزلْ

ثم يخرج الشاعر عن المألوف، ويعبر عن مشاعره جهراً باسم الحرية واصفاً الغانيات اللواتي يتمتع بهن في إشارة إلى المرأة البيضاء مفتولة القوام، جلدها ناصع كاللبن صقيل، ولعلها دلالة العين المخصوصة بصفة المرأة الغانية، إذ أقبلت فالخصر دقيق جميل، وإن أدبرت فالردف فخم ثقيل، إذ يقول:[2]

وأقررتُ عيني من الغانيا ... تِ إما نكاحاً وإما أزنْ

من كل بيضاءَ ممكورة ... لها بشرٌ ناصِعٌ كاللبنْ

عريضة بُوصٍ إذا أدبرتْ ... هضيمُ الحَنَا شختهُ المحتضنْ

إنَّ الناظر في هذا المقطع يجده متردداً مغلوباً على أمره ثم لا يدري أيكن عنه أم يقصد له ويرضى به، إذ لم يكن ذلك منه إلاّ طيش الشباب، ويعاقب عليه بما أسرف في الإثم بل يقصد أنه لم تكن إلاّ نظرة أصابته على غرةٍ بصحراء (زُمّ) من امرأة فاتنة أشارت له بابتسامة كشفت عن أسنانها المتفرقة والجميلة في استوائها فكيف السبيل إليها وقد نأت ؟ فقد تركت في نفسه أثراً عبر عنه ، إذ يقول:[3]

وما كان ذلك إلاّ الصِّبى ... وإلاّ عِقابَ امرىءٍ قد أثِمْ

ونظرةَ عينٍ على غرّةٍ ... محلَّ الخليطِ بصحراءِ زُمْ

ومبسمها عن شتيتِ النَّبا ... تِ غير ألسٍ ولا منقصمْ

فبانت وفي الصدرِ صدعٌ لها ... كصدعِ الزجاجةِ ما يلتئمْ

غير أنَّ الشاعر ذكر المرأة وانبهاره بجمالها عن طريق التلميح والاكتفاء بجزئيات الصفات والاسترسال في ذكر التفاصيل الدقيقة، بحسن جمالها، وروعة قوامها، لها عينان عينا ظبي ابيض خالص البياض، وشعر أسود فاحم، ووجه صافٍ نقي اللون، وهي بعيدة لا يدركها الشاعر ولا تدنو منه، ويمكن التماس دلالة العين بوضوح في الأبيات عبر الاسترسال والدقة في الوصف، إذ يقول:[4]

مبتلةٌ هيفاء رودٌ شبابها ... لها مقلتا رئمٍ وأسود فاحِمُ

---

[1] () ديوانه:.276-275

[2] () ديوانه: 17.

[3] () ديوانه: 35.

[4] () ديوانه: 77.

ووجهٌ نقي اللونِ صافٍ يزينهُ مع الحلى لباثٌ لها ومعاصمُ

وتضحكُ عن غُرِّ الثنايا كأنه ذرى أقحوانٍ نبتهُ متناغمُ

ونجد أنَّ بكاء الشاعر على الأطلال، إنما صادر عن عاطفة جياشة تجاه الحبيبة الراحلة، واشتياقه لها، لكنه لا يدركها ولا يستطيع زيارتها، ففاضت دموعه كفيض الدلاء تتوالى متتابعة، وكأنها حبات عقد، فضحته عيونه ويؤصل الشاعر صورته الفنية بالمفارقة بين العين والدموع، وكيف كشفت هذه الدموع سر اشتياقه وعدم استطاعته التحكم بها، إذ يقول:[1]

أأزمعتَ من آل ليلى ابتكار ابتكاراً وشطّتْ على ذي هوىً أن تُزارا

وبانت بها غَربَاتُ النَّوى وبُدِّلتْ بها شوقاً وادّكارا

ففاضت دموعي كفيضِ الغُرُو بِ إمَّا وكيفاً وإمّا انحِدارا

غير أنَّ المتأمل في نصوص الأعشى يلمح سمة بارزة هي إبدال الفعل (رمت) بآخر هو (صادت)، إذ يحمل دلالة عميقة ودقيقة في التعبير عبر وصف الشاعر لمحبوبته التي أصابته وصادته بطرف عينها التي تشبه عين ظبي مغزل، أي له غزال صغير يرعاه، ولعل هذا التبادل بطرف العين بين الشاعر ومحبوبته، يضعنا أمام خصوصية العلاقة الوجدانية التي تعتريه، فالتبادل واضح بين الطرفين من خلال الرؤية وما تحمله من دلالات عميقة أصابت فؤاده بهذه العين الجميلة، إذ يقول:[2]

لا شيءَ ينفعني من دونِ رُؤيتِها هل يشتفي وامقٌ مالم يصِبْ رَهَقا

صادت فؤادي بعيني مُغزلٍ خذلَتْ تَرعَى أغَنَّ غَضيضاً طرفُهُ خَرَقا

- العدو (الكره):

من المنطقي أن يحدث حواراً صامتاً بين الإنسان والشخص الآخر عن طريق العين ، فيكسر حاجز الصمت ويبوح برغبة منعت اللسان من التفوه به، فالعين أحياناً ترسل إيحاءات الحب، الكره، الحقد، الجرأة، الشجاعة، الإقدام... الخ تعبر عمّا بداخل الانسان، وإذا كان الكلام المنطوق يبوح بالرغبات، فإنَّ العين تمتلك رصيداً ضخماً من التعابير والإيحاءات، وهي من أكثر الحواس أهمية للإنسان "فعن طريقها يرى الإنسان الاشياء ويستطيع المقارنة بينها، محدداً التشابه والاختلاف لذلك تؤدي هذه الحاسة دوراً هاماً في تشكيل الصورة الشعرية"[3]، غير أنَّ المتأمل في نصوص الأعشى يمكن أن يلتمس تلك الإيحاءات التي تتجاوز الإشارة بالعين، بل التمعن في تلك النظرات ودلالاتها عبر الاسترسال في وصف الجزئيات والتفاصيل الدقيقة في قصائده، وأول ما يستوقف المتأمل في نصوص الأعشى وضوح دلالة العين في جزئياتها كافة سواء أكان على صعيد الأنا أو الآخر. ولسمة العين في مجالات الكره والبغض أثر فاعل؛ فالناظر في شعره يلمح نظرة الأعداء وكرههم، فهم ينظرون إليه بمؤخر عيونهم، وقد استكانوا وذلت أعناقهم، وبدت أسنانهم وقد علت الصفرة والصدأ، فهم كما يصفهم بأنهم سود قصار الهمم، محاولاً ضرب وجهه جزعاً على ما أصابه فلا يبالي أي عينيه أصاب[4]، إذ يقول:[5]

وترى الأعداءَ حولي شَزَراً خاضعي الأعناقِ أمثالَ الوَدَحْ

قد بنى اللؤمُ عليهم بيتَهُ وفشا فيهم مع اللؤمِ القلحْ

فهم سودٌ قصارٌ سعيهُم كالخُصِ أشعلَ فيهنَ المَذحْ

---

[1] () ديوانه: 45.

[2] () ديوانه: 365.

[3] () تراسل الحواس في الشعر العربي القديم: 51.

[4] () ينظر: ديوانه: 244.

[5] () ديوانه: 245.

يضربُ الأدنى إليهم وجهَهُ لا يُبالي أيُّ عينيهِ كفَحْ

على أنَّ أبرز ما يكشفه الأعشى هو تناول الأنظار بين طرفي الخلاف توضح وصف حركة العين وأثرها في تجسيم معنى البغض أو الكره أو العداء للأخر بحسب ما يقتضيه الموقف وكان ذلك أشبه بلغة داخل لغة، وهو تعبير ضمني عن المضمون الانفعالي، تتحول عبرها النظرات عن طريق العين بصورها البصرية إلى دلالات تعبيرية يقصد الشاعر من خلالها نفور العدو حين يلقاه، ويصرف عنه نظره، مقطباً وجهه، وكأنما وضعت بين عينيه المحاجم[*1] لكن الشاعر لا يبالي بما سيكون عليه الآخر ولابد من تأمل صورة الشاعر الأعشى في اللامبالاة، إذ يقول:[2]

يزيدُ يغضُّ الطرفَ دوني كأنما زوى بين عينيهِ على المحاجمُ

فلا ينبسطٌ من بين عينيكَ ما انزوى ولا تلقني إلاّ وأنفكَ راغِمُ

ونجد في نص آخر بعضاً من حالات حركات العين أثرها الواضح في وصف معاني الحيرة والذهول بين من هو يائس وتيقن لما رآه في أول ساعة فنظر الجيوش الكبيرة وما فيها من قوة وشر قد كمن في لقياهم، إذ يقول:[3]

فلما رأى القوم من ساعةٍ من الرَّاى ما أبصروه اكتمنْ

وما بالذي أبصرتهُ العيو نُ من قطع بأسٍ ولا من يقنْ

وقال أيضاً:[4]

ترى همهُ نظراً حَفْرُه وهَمكَ في الغزوِ لا في السَمن

وفي كل عامٍ له غزوةٌ تحت الدوابِر حيث السفن

ومنح الشاعر الخصم نظرة ذات دلالات نفسية، لما يحمله هذا العدو الحقود من جهل واعتقاده أنَّ هناك حساباً شاقاً عسيراً كمطر (منثم) فقد تنكر الشاعر وتبرأ من (عمير) ويقول له إنَّ الحقد لن ينال من أحدٍ كما ينال منك، وكما تفعل أنت عندما تراني مقبلاً إليك تخفي سهامك، وعندما تراني أدبر ترميني من وراء ظهري، وليس له أي ذنب سوى أنَّ العداوة قد ثارت في نفسه تجاه الشاعر، إذ يقول:[5]

فدعْ ذا ولكن ما ترى رأي كاشح يرى بيننا من جهله دف منثِمِ

أراني بريئاً من عُميرٍ ورهطه إذا أنت لم تبرأ من الشر فاسقِمِ

إذا ما رآني مقبلاً شام نبهُ ويرمي إذا أدبرت ظهري بأسهِمِ

على غيرِ ذنبٍ غير أنَّ عداوةً طمت بِكَ فاستأخر لها أو تقدمِ

ولدلالة العين على الكره والشر حاظرة في نصوص الأعشى حين اقبل الناس شرها لُجين، وقد تجمعوا أخلاطاً بين فصيحٍ وأعجم'إذ يقول:[1]

---

*)[1] المحاجم: جمع مِحجم (بكسر الميم) وهو ما يحجم به، وحجم طرفه عني صرفه. ديوانه: 78.

[2]() ديوانه: 79.

[3]() ديوانه: 23.

[4]() ديوانه: 23.

[5]() ديوانه: 123.

فلما رأيتُ الناسَ للشر أقبلوا وثابوا إلينا من فصيحٍ وأعجمِ

وقد ينسب الشاعر فعلة (القطع) إلى نفسه ولعله العداء للدلالة على التمكن والقدرة من العدو في قوله:[2]

ولقد أمنحُ من عادياتُهُ كل ما يحسِمُ من داءِ الكشحِ

وقطعْتُ ناظريهِ ظاهراً لا يكون مثل لطمٍ وكمنحْ

ولعل التجارب الكثيرة التي خاضها الأعشى، وأظهر فيها قابلياته في دقة الوصف والحس في التصوير، والقدرة على معايشة الأحداث بكل أشكالها إذ كان الغزو محوراً أساسياً من محاور المجتمع القبلي "فالشعر هو أسلوب التعبير عن الحروب والشاعر يمثل القدرة التي تصوغ الأسلوب وتعبر عنه وتضفي عليه من الوجدان ما يترك له قدرة التحرك واستساغة السماع وقبول التذوق"[3] وإمعان النظر في الآخر (العدو).

- الأقارب (البغض):

صور الشاعر الأعشى دلالة نظرة العين إلى معانٍ لعل أقربها إلى الشر نظرة للخصام الذي دار بين أبناء عمومته وقطعت الأرحام والقرابة؛ بسبب الحرب الدائرة بينهم، فكان للبغض والكره والحقد الأثر الفاعل في تلك الحرب التي يفيق فيها النائمون من سباتهم بالطعنة النافذة، يندفع منها الدم حتى يغشى الفراش، ويبيت المطعون قد أوقدت من حوله النار، وتسبى فيها النساء، فتجد السيدة الكريمة تخدم ابنة عمها، ممتهنة ومبتذلة، كفعل الخدم والإماء، ويرى الأعشى أنَّ سبب تلك الخصومة هو تحريض بني سيار على قتل سادات وأشراف قبيلة بكر، ثم يزعم بعد ذلك لابد للشر من نهاية، إذ يقول:[4]

بمُشعلةٍ يغشى الفراشُ رشاشُهَا يبيتُ له ضوءٌ من النارِ جاحِمِ

تقرُّ به عينُ الذي كان شامِتاً وتَبتلُ منها سُرَّةُ ومَاكِمُ

وتُلقى حَصَانٌ تخدمُ ابنة عمها كما كانَ يُلقى الناصِفاتُ الخوادِمُ

إذا اتصلتْ قالت أبكرُ بن وائلٍ وبكرٌ سبيتها والأنوفُ رَوَاغِمُ

فالشاعر لم يتوقف عند حديث العيون فحسب، إنما تعداه إلى الأصم الذي لا يسمع، فالحديث تسمعه العيون وهو نمط من أنماط التراسل في الحواس، فالقول هنا للعين وليس للأُذن التي لا تسمع فليس الأعشى بمبصر ما يرى (الأصم) وليس (الأصم) بسامع ما يقول (الأعشى)، إذ يقول:[5]

متى تقرن أصمَّ بحبلِ أعشى يلجَّا في الضَّلالةِ والخسَارِ

فليسَ بمبصرٍ شيئاً يراهُ وليسَ بسامِعٍ مني حِواري

وللرؤية في عين الشاعر مغزى آخر لمن يطيعه بالعز والمال ولمن يعصيه يلقى الخسران والخذلان، فهو من سادة القوم الذين إذا اشتد الفزع وامتقعت وجوه الرجال سيكون بألف رجل ولاسيما عند توفر عدة القتال وأدواته، إذ يقول:[1]

---

[1]() ديوانه: 125.

[2]() ديوانه: 245.

[3]() شعر الحرب حتى القرن الأول الهجري، د. نوري حمودي القيسي، ط1، بيروت، مكتبة النهضة العربية، 1406هـ/ 1986م: 57.

[4]() ديوانه: 81.

[5]() ديوانه: 305.

فأرى مَن عصاكَ أصبح مخذو ... لاً وكعبُ الذي يطيعُك عالي
أنتَ خيرٌ مِن ألفِ ألفٍ من القو ... مِ إذا ما كبت وجوهُ الرجالِ
ولمثل الذي جمعت من العد ... ةِ تأبى حكومة المقالِ

المبحث الثاني

عيون الحيوان ودلالاتها

1- **الناقة**:

عادة ما يتبع ارتياد الصحراء إعتماد (الناقة) في قطع المسافات الطويلة، ولعلها الوسيلة الوحيدة في اختراق الصحراء واجتيازها فهي سفينة الصحراء، وقد يحتفي الشاعر بأجزاء (الناقة) لتبدو أقرب إلى الثبات على الرغم من أنها تتحرك وتجوب مجاهيل الصحراء وتنتقل. فقد اتخذ الشاعر من الناقة راحلته التي تحمله إلى موطنه وقومه، فهي الرفيقة التي يتوحد بها الشاعر مع نفسه عبر الوجود وهي أهم وسيلة يعتمدها الشاعر في مواجهة المجاهيل ولاسيما الصحراء، وما تنطوي عليه من مخاطر وأهوال قد تهدد حياته، ولدلالة العين عند الشاعر لمنظر الناقة صورة معبرة عن موقفه الوجداني تجاه تلك الناقة فهي بالنسبة إليه كيان شعري توحدت به ذاته، إذ يحاول الأعشى تقدير المسافة عن طريق البصر ويجسد اضطرابه بهيئة الناقة لمواجهة الرحلة بالبصر والناقة، إذ يقول:[2]

يهماءُ موحشةٍ رفعتْ لعرضِها ... طرفي لِأقدر بينها أميالها
بُجلالةٍ مُسرحٍ كأنَّ بغرزِها ... هِراً إذا انتعل المطي ظلالها
عَسْفاً وإرتالُ الهجيرِ ترى لها ... خدماً تُساقِط بالطريقِ نِعالها

وتقترن الناقة في شعر الأعشى بعمق دلالة العين التي تراقب اليمين والشمال من الجانبين بحذرٍ من وقع السياط، وكما يبدو فإنَّ صورة الناقة وهي تراقب تنطوي على بناءٍ متخيل لدى الشاعر عبر رحلته بالصحراء، هذه الحركة والرؤية العميقة تدل على معاناة نفسية في دخيلة الشاعر الذي يعاين الأشياء بإيقاعها البصري عند رؤيته لها ويعاينها نفسياً إذا ما رآها تراقب بحذر وحيطة وعن كثب في كلا الجانبين، إذ يقول:[3]

وطالَ السَّنامُ على جبلةٍ ... كخلقاء من هضباتِ الدَّجنْ
فأفنيتها وتعاللتها ... على صحصحٍ كرداءِ الردنْ
تراقبُ من أيمن الجانبيـ ... نِ بالكفء من مُحصدٍ قد مرنْ

ويتعمق إحساس الشاعر عندما يمضي بوسيلته التي لا وسيلة غيرها ناقة يقطع بها تلك الفيافي الواسعة بمسافاتها الشاسعة التي تخلو من رفيق يصاحبه في تلك الرحلة سوى الناقة وقد أسبغ عليها صفات حسية ومعنوية مميزة، فهي رفيقة رحلته ملازمة له في سفره الدائم بل هي الرفيق الذي أسقط عليه إحساسه الداخلي في البحث عن الأمل، والعنصر القوي في تشكيل الصورة الكلية في خيال محركاتها وصفاتها وشكواها من خلال حشد فيض كبير من الصفات الحسية والدلالية برؤية عميقة، إذ يقول:[4]

وتراها تشكو إليَّ وقد آ ... لت طليحاً تُحذى صدُور النعالِ
نقب الخف للسرى فترى الأد ... ساعُ من حِلِّ ساعةٍ وارتحالِ
أثَّرت في جناجنٍ كأرانِ الـ ... ميتِ عُولينَ فوق عُوجٍ رسالِ
لا تتكئ إلى من الم النسـ ... عِ ولا من حفا ولا من كلالِ

---

[1] () ديوانه: 11.

[2] () ديوانه: 27.

[3] () ديوانه: 19.

[4] () ديوانه: 7.

لا تتكئ إليَّ وانتجص الأسـ ودَ أهل الندى وأهل الفِعالِ

تعد الناقة في أكثر الأحيان ترجمة ذاتية لإحساس الشاعر وانفعالاته وما يكابد في أعماق ذاته من نوازع بشرية متناقضة وضدية تتوزع ما بين التفاؤل والتشاؤم، والأمل واليأس، والفرح والحزن، والأمان والخوف، والحياة والموت، عبر رحلته في تلك اليهماء وما بها من تيه رملي يضل فيه السالك قد قطعه الشاعر فوق ناقة ضامرة في ظلام الليل البهيم، وعينها منحرفة في جنب مؤقها، تراقب في كفن مسوطاً يابساً لم يمس جلدها، إذ يقول:[1]

فدع ذا ولكن رُبَّ أرضٍ مُتيهةٍ قطعتُ بجرجوحٍ إذا الليلُ أظلما

بناجيةٍ كالفحل فيها تجاسرٌ إذا الركبُ الناجي استقى وتعمما

ترى عينها صفواء في جنب مؤقها تراقبُ في كفنِّ القطيعِ المحرَّما

وقد تتلون أحوال الناقة على وفق الأحوال النفسية للشاعر، فناقة الأعشى تبدو وقد أجهدتها وأثقلت كاهلها مشاق الحل والترحال، كأنه قدرها الذي لا مفر منه، ولعل شعور الشاعر المضطرب هو الذي أفضى به إلى إصراره بأنَّ تلك الناقة قد أبرزها الهزال فظهرت في جنبيها آثار السيور والحبال وكأنَّ ناقته تشتكي إليه آلامها فيقول لها: لا تشتكي إلى الحفر وطول السرى واصبري على مشاق السفر آناء الليل وأطراف النهار، رغم أنَّ ناقته كانت خيرهن وأجلدهن، تروق الأنظار وتنعش الأبصار، إذ يقول:[2]

فكانت سريتهنَّ التي تروق العيونَ وتقضي السفارَا

فأبقى رواحي وسيرُ العد وَّ منها ذواتَ حِذاء قصاراً

وألواحَ رهبٍ كأنَّ النسـ عَ بيَّن في الدَّف منها سطارا

ودأياً تلاحكن مثل الفؤو سِ لاحَمَ منها السليل الفقارا

فلا تشتكن إلى الوَجى وطولَ السَّرى واجعليه اصطبارَا

رواح العشى وسير الغدو يد الدَّهر حتى تلاقى الخيارا

وتستحيل الناقة برؤية الأعشى رمزاً للقوة والثبات عندما تمخر عباب الصحراء بإدمان الرحلة وقد شدَّت فوق ظهورها السيور والحبال، وقد أدمنت تلك الناقة السير طوال الليل والنهار دائبات، طوال الأعناق، غائرات العيون، ناحلات البطون في موضع الحزام، إذ يقول:[3]

تراهُنَّ من بعد إمساؤهن وسير النهار وتدآبها

طوال الأخادع خوص العيون خماصاً مواضع أحقابها

وقد تسهم الناقة بشكل أو بآخر "بتجسيد الصراع النفسي والفكري الذي يحتدم في دخيلة الشاعر في أثناء معاناته تفاصيل رحلة الحياة وصعوباتها في الصحراء"[4]، إنها صورة معبرة عن موقف الشاعر الوجداني من الناقة التي توحد معها، بوصفها وجوداً خارجياً تقابل القلق الداخلي الذي يحياه الشاعر، فالناقة تمثل شكلاً من أشكال التوازن النفسي الذي يحتاجه عميقاً"[5]، كل تلك الأوصاف التي أطلقها على الناقة هي تجسيد للخط التراسلي بين العين والإحساس الذي ينتابه تجاه الناقة في تشكيل الصورة الوصفية لتلك الناقة. تحدى الشاعر الصحراء واختراقها بناقة قوية أثارت بعينيها القطيع، وعلقت نظرها بقطعان المها، تطوي رمال الصحراء البعيدة الأطراف، فتخرج الظبي من كناسه، وتبعث القطا الهاجد من مكمنه، إذ يقول:[6]

---

[1] () ديوانه: 295.

[2] () ديوانه: 47.

[3] () ديوانه: 173.

[4] () الهوية في الشعر العربي قبل الإسلام: 133.

[5] () ينظر: الآفاق القصية: دراسة في المعلقات: 73.

[6] () ديوانه: 67.

أثارتْ بعينيها القطيعَ وشمَّرتْ لتقطعَ عنّي سبسباً متباعدا

تبزُّ معافير الصَّريم كناسها بالفَلا وتبعثُ قَطَاهَا الهواجِدَا

وقد يبرز تشبيه الناقة أحياناً بالفحل على اعتبار أنَّ المجتمع الجاهلي كان مجتمعاً ذكورياً بامتياز، كونه الأكثر تحملاً لأعباء الحياة والأقوى في مواجهة الواقع العنيف والصلب، وهو المرتكز الثقافي في البيئة الجاهلية على أنها ثقافة مجتمع يتغلب فيها الثقافي المتمثل بالعادات والتقاليد والنظم الاجتماعية على الطبيعي المتمثل بكينونة الشخصية البدوية القبلية والمتضمن الغرائز الفطرية والذي تثيره سلسلة من الصراعات الجدلية بين رفض الحقائق وقبولها، وبين هدمها والمحافظة عليها، وبين تجنبها والتمسك بها، وهي تؤلف صورة الحياة بفاعليتها وتناغمها وتأثيراتها.[1]

ولعل الاعشى شبيه الناقة بالبنيان الشامخ والقنطرة وسندان القيود ومطرقتهم فهي كالبنيان ولعلها صورة خيالية ذهنية تعري ثبات أفكار الشاعر وتصويره لصورة الناقة بهذا المنظر الجميل لما تألفه عينه الواقعة على تلك الناقة تلك النظرة التي تحمل في طياتها دلالات متعددة ومتنوعة يعبر من خلالها في هذه الأبيات، إذ يقول:[2]

وقد أقرى الهموم إذا اعترتني عُذافرةً مُغبرةً عُقاماً

وقال أيضاً:[3]

فأضحت كبنيان التهامي شادَهُ بطينٍ وجبار وكلسٍ وقرمدِ

2- البقرة الوحشية:

وقد تتحول الناقة في أحيان أخرى إلى (بقرة) وحشية فهي رمز الأمومة والحنان تفجع بوليدها وتؤكد هاجس الفقد الذي يتملك الشاعر في رحلته التي يخطو إليها في فيافي الصحراء، ثم تعمد إلى تشبيه عيون النساء بعيون (البقرة الوحشية) دلالة الاتساع والجمال والغموض، إذ يقول:[4]

وأجمعت صرمنا سُعدى وهجرتنا لما رأت أنَّ رأسي اليوم قد شابا

أيامُ تجلو لنا عن باردٍ رتلٍ تخالُ نكهتهُ بالليلِ شيابا

وجدي مغزلةٍ تقرُو ناجذها من يافع المرد ما احلو لي وما طابا

وعينُ وحشيةٍ أغفت فأرقها صوتُ الذئابِ فأوفت نحوه دابا

وقد يشبه الأعشى ناقته في كفاحها الطويل للتغلب على مصاعب الصحراء، وفي تخطيها بكل ما تصادفه من عقبات (ببقرة وحشية)، ثم ينصرف إلى تصوير هذه البقرة في معركة حامية مع كلاب الصيد عرضت لها، فراحت تدافع عن نفسها في بسالة حتى تغلبت عليها، ثم يقول بأنَّ ناقته تشبه هذه البقرة من حيث جرأتها وصبرها وظفرها بالنصر على كلاب الصيد[5]، إذ يقول:[6]

قطعت إذا خبَّ ريعانها بعرفاء تنهضُ في آدها

---

[1] () ينظر: جدلية الطبيعي والثقافي في معلقة امرئ القيس، بحث منشور في مجلة (سر من رأى)، كلية التربية/ جامعة سامراء، مج 17، ع 70، سنة 16، 1443هـ/ 2021م: 251.

[2] () ديوانه: 195.

[3] () ديوانه: 189.

[4] () ديوانه: 361.

[5] () ينظر: ديوانه: 72.

[6] () ديوانه: 71.

سديسُ مقذفةٍ باللكيـ كِ ذات نماءٍ بأجلادها

تراها إذا أدلجت ليلةً هُبوبَ السرى بعد إسآدها

هي بقرة خلفت طفلها في مُنة (جو) بين صخورها الغليظة، فباتت وحيدة مستوحشة، تضم أحشاءها على حزن كمين، فما أسلبها ليلها الحزين إلى الصباح، لقيتها كلاب الصيد الضارية، فاندفعت إليها وقد أغراها الصياد، فلم تزل تجري وتتجول هنا وهناك، تجاورها وتداورها حتى أجهدها الجولان، وأجهد أرجلها الأربع ولم تجد هذه البقرة بداً من الاستبسال، فثبتت فوق الصلبة المنبسطة التي لا يواريها شجر أو نبات، لا تحاول أن تترك مكانها هاربة لكنها تكر على الكلاب بقرنها كلما أرهقتها بالهجوم فتحمي جلدها أن تناله أنيابها فتمزقه وتنفذُ قرنها في ضلوعها[1]. إذ يقول:[2]

كعيناء ظلَّ لها جؤذرٌ بقُنَّة جَوٍ فأحجادها

فبانت بشجوٍ تضمُ الحَشَا على حُزنِ نفسٍ وايحادها

فصبَّحها لطلوع الشروقِ ضِراءٌ تسامى بإيسادها

فجالت وجالَ لها أربعٌ جهدت لها مع إجهادها

فما برزت لفضاءِ الجهادِ فتتركهُ بعدَ إشرادها

الخاتمة

وإذ ينتهي مطاف البحث في لغة العيون ودلالاتها في شعر الأعشى بالمقاربات التحليلية يمكن استنتاج الآتي:

- انطلاقاً من تجسيد لغة أخرى للتواصل مع الآخر غير اللغة الصوتية المنطوقة، وهي لغة الإشارات المرئية والإيحاءات ولاسيما العين؛ لأنها نافذة القلب وهي تعد المسؤولة عن توصيل العديد من الرسائل من دون الإفراط في استخدام الكلمات ارتأينا ان نضمن قصيدة الأعشى التي تمتاز عن بقية القصائد التي نظمها في مدح سيد المرسلين محمد () اذ يشكو حاله فلم تغمض عيناه، بسبب ما أصابه من الرمد الناتج عن طول السهر، لعدم معرفته بالدهر الذي طالما أصلح شيئاً ثم عاد ليفسده، ولعلها الحكمة في أبياته حينما نقارن هذه القصيدة مع قصائده الأخرى.

- تنوع أساليبه في اختيار الصيغ المعبرة عن دلالة العين في إيصال المغزى العام أو الدلالة غير المحددة، ويعد حضور المرأة في حياة الشاعر الملاذ الآمن لحياته بوصفها المحور الأساس والتي تكشف من خلالها عن ذاته عبر تقنية العين.

- النصيب الأوفر كان للعدو، فمن البديهي ان يحدث حوار صامت بين الإنسان والآخر عن طريق العين التي كان لها دور هام في تشكيل الصورة الشعرية.

- فضلاً عن الأقارب الذين دارت بينهم النزاعات والخلافات ولاسيما أبناء عمومته، وقطعت الأرحام فيما بينهم، فالشاعر لم يتوقف عند حديث العيون فحسب وإنما تعداه الأصم الذي لا يسمع وهو التراسل في الحواس.

- وتقترن الناقة في شعر الأعشى بعمق دلالة العين فقد كان الشاعر يتوحد معها في قطعه للمسافات الشاسعة في الفيافي والمجاهيل، فضلاً عن تحول تلك الناقة إلى بقرة وحشية وهي كالتعادل الفني للشاعر وما يضمره من مشاعر جياشة تنتابه بين الحين والآخر.

REFERENCES :

LIST OF SOURCES AND REFERENCES

*BOOKS:

1- DISTANT HORIZONS, A STUDY IN AL-MU'ALLAQAT, WAFIQ KHANSA, 1ST EDITION, DAR NOUN FOR STUDIES AND PUBLISHING, 1997.

[1] () ديوانه: 72.

[2] () ديوانه: 73.

2- AL-BAYAN WAL-TABYIN, AMR BIN BAHR BIN MAHBOOB AL-JAHIZ (D. 225 AH), EDITED BY: MUHAMMAD ABDEL SALAM HAROUN, 5TH EDITION, CAIRO, AL-KHANJI LIBRARY, 1985 AD.

3- CORRESPONDENCE OF THE SENSES IN ANCIENT ARABIC POETRY, ABD AL-RAHMAN MUHAMMAD AL-WASIFI, 1ST EDITION, DAMASCUS, REVIVAL OF ARAB HERITAGE, 2008 AD.

4- THE MEANING OF WORDS, IBRAHIM ANIS, 7TH EDITION, EGYPT, ANGLO-EGYPTIAN LIBRARY, 1993 AD.

5- THE VISION IN THE HAIR OF DHUL-RUMMAH,\. ANN TAHSEEN MAHMOUD AL-CHALABI, BASSAM HOUSE AND LIBRARY, MOSUL - IRAQ, 1424 AH / 2003 AD.

6- WAR POETRY UNTIL THE END OF THE FIRST CENTURY AH, DR. NOURI HAMOUDI AL-QAISI, 1ST EDITION, BEIRUT, ARAB NAHDA LIBRARY, 1406 AH / 1986 AD.

7- THE PHENOMENON OF ANXIETY IN PRE-ISLAMIC POETRY, DR. AHMED KHALIL, 1ST EDITION, DAMASCUS, TALAS HOUSE FOR STUDIES, TRANSLATION AND PUBLISHING, 1989 AD.

8- ARABIC LINGUISTICS, DR. MAHMOUD FAHMY HEGAZY, (DR. I), CAIRO, DAR GHARIB, 1992 AD.

9- IN SEMANTICS - AN APPLIED STUDY IN AL-ANBARI'S EXPLANATION OF THE FAVORITES, ABDUL KARIM AL-JAMAL.

10- AL-QAMOOS AL-MUHIT, AL-FAYROUZABADI, MAJD AL-DIN MUHAMMAD BIN YAQOUB, ARRANGED AND AUTHENTICATED BY: KHALIL MAMOUN SHIHA, 1ST EDITION, BEIRUT, DAR AL-MA'RIFA, 2005 AD.

11- LISAN AL-ARAB, IBN MANZUR, MUHAMMAD BAM MAKRAM (D. 711 AH), BEIRUT, DAR SADER.

12- THE LANGUAGE OF THE EYES, READING THE EYE'S SPEECH IN ANCIENT ARABIC POETRY (A STYLISTIC STUDY), DIYA GHANI LAFTA, ALI MOHSEN BAWI, 1ST EDITION, AMMAN, DAR AL-HAMID, 2008 AD.

13- DICTIONARY OF STANDARDS IN LANGUAGE, IBN FARIS, EDITED BY: SHIHAB AL-DIN ABU OMAR, 1ST EDITION, BEIRUT, DAR AL-FIKR.

*MESSAGES AND THESES:

- THE POET AND EXISTENCE IN THE PRE-ISLAMIC ERA, BY BASSEM IDRIS QASIM, MASTER'S THESIS, SUPERVISED BY: DR. MUHAMMAD FATTAH OBAID, COLLEGE OF ARTS/UNIVERSITY OF MOSUL, 1992 AD.

- THE EYE AND ITS SEMANTIC DEVELOPMENT IN ARABIC POETRY, UNTIL THE END OF THE UMAYYAD ERA - A STATISTICAL SEMANTIC STUDY, MASTER'S THESIS, MAHA AHMED

MUHAMMAD ABU HAMIYAH, SUPERVISED BY: A. DR.. YAHYA ABDEL RAOUF JABR, AN-NAJAH NATIONAL UNIVERSITY, NABLUS - PALESTINE, 2010 AD.

- IDENTITY IN PRE-ISLAMIC ARABIC POETRY, MAHMOUD OMAR MUHAMMAD SAEED ABDULLAH, MASTER'S THESIS, SUPERVISED BY: DR. MUAYYAD SALEH MUHAMMAD AL-YOZBAKI, COLLEGE OF ARTS/UNIVERSITY OF MOSUL, 2008 AD.

* RESEARCH PUBLISHED IN PERIODICALS:

- THE AESTHETICS OF THE LANGUAGE OF THE EYES AND ITS LINGUISTIC CONNOTATIONS, DR. MUDQAN KULTHUM, AL-BAHITH JOURNAL IN HUMANITIES AND SOCIAL SCIENCES, KASDI UNIVERSITY, MERBAH OUARGLA, ALGERIA, NO. 13, VOLUME 4, 2021 AD.

- THE DIALECTIC OF THE NATURAL AND THE CULTURAL IN THE COMMENTARY OF IMRU' AL-QAIS, MAGAZINE (SIR MIN RA'), COLLEGE OF EDUCATION/UNIVERSITY OF SAMARRA, NO. 70, VOLUME 17, YEAR 16 OF THE YEAR 1443 AH/2021 AD